

التحرير والتنوير

عطف على ما سبق من حكاية ترها تهم عطف القصة على القصة وهو عود إلى إبطال شبهة المشركين التي أشار إليها قوله تعالى (كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك اﷻ العزيز الحكيم) وقوله تعالى (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) وقد أشرنا إلى تفصيل ذلك فيما تقدم ويزيده وضوحا قوله عقبه (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) . وهذه الآية تبطل الشبهة الثانية فيما عدناه من شبهاتهم في كون القرآن وحيا من اﷻ إلى محمد صلى اﷻ عليه وسلم إذ زعموا أن محمدا صلى اﷻ عليه وسلم لو كان مرسلا من اﷻ لكانت معه ملائكة تصدق قوله أو لأنزل عليه كتاب جاهز من السماء يشاهدون نزوله قال تعالى (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا) وقال (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى أن قال (ولن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) .

وإذ قد كان أهم غرض هذه السورة إثبات كون القرآن وحيا من اﷻ إلى محمد صلى اﷻ عليه وسلم كما أوحى من قبله للرسول كان العود إلى ذلك من قبيل رد العجز على الصدر . فبين اﷻ للمكذبين أن سنة اﷻ في خطاب رسله لا تعدو ثلاثة أنحاء من الخطاب منها ما جاء به القرآن فلم يكن ذلك بدعا مما جاءت به الرسل الأولون وما كان اﷻ ليخاطب رسله على الأنحاء التي اقترحها المشركون على النبي صلى اﷻ عليه وسلم فجاء بصيغة حصر مفتوحة بصيغة الجود المفيدة مبالغة النفي وهي (وما كان لبشر أن يكلمه اﷻ) أي لم ينتهيا لأحد من الرسل أن يأتيه خطاب من اﷻ بنوع من هذه الثلاثة .

ودل ذلك على انتفاء أن يكون إبلاغ مراد اﷻ تعالى لأمم الرسل بغير أحد هذه الأنواع الثلاثة أعني خصوص نوع إرسال رسول بدلالة فحوى الخطاب فإنه إذا كان الرسل لا يخاطبهم اﷻ إلا بأحد هذه الأنحاء الثلاثة فالأمم أولى بأن لا يخاطبوا بغير ذلك من نحو ما سأله المشركون من رؤية اﷻ يخاطبهم أو مجيء الملائكة إليهم بل لا يتوجه إليهم خطاب اﷻ إلا بواسطة رسول منهم يتلقى كلام اﷻ بنحو من الأنحاء الثلاثة وهو مما يدخل في قوله (أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) فإن الرسول يكون ملكا وهو الذي يبلغ الوحي إلى الرسل والأنبياء .

وخطاب اﷻ الرسل والأنبياء قد يكون لقصد إبلاغهم أمرا يصلحهم نحو قوله تعالى (يا أيها المزمحل قم الليل إلا قليلا) وقد يكون لإبلاغهم شرائع للأمم مثل معظم القرآن والتوراة أو إبلاغهم مواعظ لهم مثل الزبور ومجلة لقمان .

والاستثناء في قوله (إلا وحيا) استثناء من عموم أنواع المتكلم التي دل عليها الفعل

الواقع في سياق النفي وهو (ما كان لبشر أن يكلمه الله) .
فانتصاب (وحي) على الصفة لمصدر محذوف دل عليه الاستثناء والتقدير : إلا كلاما وحيأ أي
موحى به كما تقول : لا أكلمه إلا جهرا أو إلا إخفاتا لأن الجهر والإخفات صفتان للكلام .
والمراد بالتكلم بلوغ مراد الله إلى النبي سواء كان ذلك البلوغ بكلام يسمعه ولا يرى مصدره
أو بكلام يبلغه إليه الملك عن الله تعالى أو بعلم يلقي في نفس النبي يوقن بأنه مراد الله
بعلم ضروري يجعله الله في نفسه .
وإطلاق الكلام على هذه الثلاثة الأنواع : بعضه حقيقة مثل ما يسمعه النبي كما سمع موسى
وبعضه مجاز قريب من الحقيقة وهو ما يبلغه إلى النبي فإنه رسالة بكلام وبعضه مجاز محض
وهو ما يلقي في قلب النبي مع العلم بإطلاق فعل (يكلمه) على جميعها من استعمال اللفظ
في حقيقته ومجازه على طريقة استعمال المشترك في معانيه .
وإسناد فعل (يكلمه) إلى الله إسناد مجازي عقلي .
وبهذا الاعتبار صار استثناء الكلام الموصوف بأنه وحي استثناء متصلا .
وأصل الوحي : الإشارة الخفية ومنه (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) . ويطلق على ما
يجده المرء في نفسه دفعة كحصول معنى الكلام في نفس السامع قال عبيد بن الأبرص :
وأوحى إلي الله أن قد تأمروا ... بإبل أبي أوفى فقامت على رجل E A